المقدمة

كان من حسنات القرن السابع عشر ان أُصلحت أساليب التعليم باستبدال طريقة التعليم الفردية بطريقة الصف في تسميع الطلاب دروسهم (١) . وقد كان الطلاب ، يجمعون في غرفة واحدة ويقسمون الى صفوف فيسمعون للمعلم دروسهم منفردين . أما نظام الصفوف الشائع الآن في جميع المدارس الحديثة فيرجع الفضل فيه ، كما قلنا الى هذه الاخوية . وبديهي ان يتطلب هذا النظام اهتماماً اكثر في تقسيم الصفوف منه في النظام القديم الذي كان أساس التقسيم فيه مادة الدراسة فحسب .

ولما ابتدأ التعليم ينتشر في المدارس العمومية في القرن التاسع عشر في اوروبا أصبح من اللازم معالجة الطلاب جماعات لا أفراداً ، ومن أجل هذا صار من السهل تعليم جماعة من الطلاب لا يقلون عن الثلاثين اذا تساووا في السن والمقدرة والدرجة العلمية ، وأصبحت الوحدة في نظام التعليم الصف او الفصل او حجرة الدراسة . وسنرى فيما بعد حسنات نظام الصف هذا بالنسبة الى النظام الفردي في فصل نفرده لهذه الغاية .

واذا جئنا نبحث في ادارة هذا الصف وتدبيره ونتعمق في كيفية معالجة ذلك وجدنا ان عامل الاقتصاد هو الاساس في هذه الادارة اي اننا نعتبر المدرسة «كما نعتبر المشروع المالي» او اي ادارة من الادارات ومن اجل ذلك ننظر الى أفضل نتيجة يمكننا الحصول عليها بعد ان نبذل من الوقت والمال والجهود ما نبذل . وعلم ادارة الصفوف هذا علم حديث نشأ في اواخر القرن التاسع عشر ، فهو ينظر الى المدرسة كما ينظر صاحب المعمل الى معمله ليرى كيف يتم صنع الناتج من المواد الخام ، غير ان المدرسة تختلف عن المعمل في انها

---

(١) يرجع الفضل في ذلك الى الاخوية التي أسسها (Jean Baptiste de la Salle) جان بپتست دي لا سال سنة (١٦٥١ — ١٧١٩)

تعالج مخلوقات حية فعالة . في حين ان المعمل انما يعالج مواد لا حياة فيها ، ومن اجل هذا العامل الحيوي تصبح المادة التي تعالجها المدرسة متأثرة من جميع عوامل المحيط . لا من العوامل التي وضعت للتأثير عليها فقط كما هي الحالة في المعمل . وبعض هذه العوامل كالبيت والشارع مثلا خارج معظمها عن نطاق المدرسة ، وهناك اعمال مدرسية لها اثر شديد في حياة الطلاب ولو كان المعلمون لا ينظرون اليها عادة نظرة اهتمام . والمعروف ان المباحث المدرسية تهذب الطالب وتثقفه ، ولشخصية المعلم ذات التأثير وقد أصبحوا يعتقدون الآن ان بيئة الطالب الطبيعية كالابنية وجدران حجرة الدراسة وساحات اللعب والقاعات جميع هذه لها اثر فعال في تكوين خلق الطالب . وبالرغم من اعتراف البعض بهذه العوامل فانهم يجهلون ان توزيع الكتب والادوات المدرسية والانتقال الى اللوح الاسود وجلسة الطالب وترتيب الثياب والمعاطف والوقوف في صفوف والمحافظة على الهدوء والسكينة وحسن الترتيب والنظام لها اثر تهذيبي قد لا يقل عن اثر الدروس المخصصة في منهج الدراسة . هذا هو الذي يميز ادارة الصف عن ادارة مشروع مالي . فان الاشكال والاساليب التي تتبع في ادارة الصف قصد الاستفادة من الدروس هي ذاتها عوامل حيوية في تهذيب الطالب .

اليك مثلا : اذا فرضنا ان اتقان جدول الضرب امر اساسي في تهذيب الفرد أصبح من عمل ادارة الصف ان يتقن جميع طلاب الصف جدول الضرب باقل ما يمكن من وقت وادنى ما يكون من جهد . وربما اثبتنا ان الخوف من الفحص او من خيبة المسعى او من خسارة امتياز من الامتيازات او من القصاص البدني قد تحمل الطالب على ان ينهك نفسه في تعلم جدول الضرب المطلوب فيتوفر بذلك عليه الوقت ويقتصد المعلم في مجهوداته . واذا كان احد هذه المشوقات يأتي بالنتيجة المطلوبة مع الاقتصاد في الوقت والجهود جاز لنا القول مبدئياً ان مشكلة تعلم جدول الضرب قد حلت . غير انه يمكننا أن ندرك بسهولة ان هذا المشوق قد اثر تأثيره المطلوب في هذه الناحية الضيقة وبهذه

الطريقة السطحية ، لكنه من جهة اخرى ألحق بالطالب ضرراً يصعب تلافيه . فادارة الصف اذاً لا تكتفي بالغاية السطحية مهما كانت تلك الغاية مرغوباً فيها ، بل تبحث في تأثير الطريقة التي تستخدم للوصول الى النهاية المطلوبة في الطالب ، اذ يجب ان ينظر الى النتائج النهائية الخالصة ، لا النتائج المعجلة مهما كانت مرغوباً فيها . خذ مثلا آخر : ان المواظبة والمحافظة على الوقت للحضور الى المدرسة امر اساسي يزيد في كفاية المدرسة ويمنع الاسراف في الوقت والجهود ، ولذلك تقوم ادارة الصف بعملها من الوجهة المعجلة اذا ضمنا حسن مواظبة الطلاب ومحافظتهم على الوقت طيلة الفصول المدرسية . ومعنى ذلك ان ادارة الصف قد وصلت الى اكمل درجة في كفايتها . ومن الواضح ان الحصول على هذه النتيجة المطلوبة يتطلب استعمال طرق قاسية تعود على الطلاب حتما بالضرر مما لا يتناسب مع الفائدة الناجمة عن ذلك . وإذن فان الاساليب والطرق التي تستعمل في ادارة الصف لتمنع الاسراف في القوى والجهود يجب ان لا ينظر اليها من جهة نتائجها فحسب بل من حيث تأثيرها على الطالب عاجلا وآجلا وانطباقها على اغراض التربية . ولذا كان من الضروري ان يتعمق المعلمون في علم النفس وفي نظريات التربية العامة ليكتشفوا القواعد الاساسية في تربية الطلاب . وهنا يجدر بنا ان نسأل :

ما هو غرض التربية ؟ اننا بالرغم من اختلاف الاقليم وتنوع غايات التربية عند الامم نرى ان عمل المدرسة هو اعداد الطفل للحياة في المجتمع الراقي . والطفل يختلف عن باقي صغار الحيوانات في ان مدة طفولته واستعداده للحياة اطول ، ولهذا يحتاج في هذا الدور الى تدريب وتعليم لكي يستعد للدخول في الحياة الاجتماعية التي ولد فيها عندما يبلغ سن الرشد . فالتربية هي الكلمة الشاملة لهذه الطريقة ، والعوامل التهذيبية تشتمل على جميع القوى التي تؤثر في الفرد وتوصله الى هذه النتيجة ، والتربية المدرسية هي نوع خاص من التربية العامة ، فهناك التربية التي تتمثل في البيت او في الدين او في اي نظام اجتماعي .

ان الغرض من التربية هو الكفاية الاجتماعية ، وإذن فيجب ان ينطبق جميع ما تقوم به المدرسة على هذا المقياس وأن لا ترمي اساليب التعليم او ادارة الصف الى اي تأثير غير اجتماعي . وقد اختلف الثقات في فهم المقصود من الكفاية الاجتماعية غير انهم ، على كل حال يتفقون على ان الاستقامة وضبط النفس والميل الى التعاون والمحبة وشيئاً من التساهل وشيئاً من الغيرة هي صفات اساسية لمن يريد ان يعيش في هيئة اجتماعية راقية . وهناك صعوبة اخرى وهي انه يستحيل ان يحكم الفرد على النتيجة المؤكدة لطريقة من طرق التعليم ، ذلك لان آثارها لا تظهر الا بعد حين . وعليه فمشكلة ادارة الصفوف تنحصر في ان يرى هل ينطبق الاسلوب او الطريقة على الغرض النهائي من التربية ؟ اي هل ما نطبقه من التدابير يجعل الطالب يملك الكفاية الاجتماعية المطلوبة في المستقبل ؟

خذ الجوائز مثلا . يجب ان لا نكتفي بالقول انها من مشوقات الدرس ، بل يجب ان نتساءل ما هو أثرها في خلق الطالب فيما بعد ؟ هل تجعله أنانياً ؟ هل تربي فيه عادات غير اجتماعية ؟ أما الجواب على ذلك فيقتضي بحثاً عميقاً ، ولا فائدة من القول العام غير المستند الى دليل او برهان .

وصفوة القول على المربي ان يبحث في تدابيره مستنداً على عقله لا عواطفه محللا جميع الحقائق ناظراً اليها من جميع جهاتها .